

## رمزية المرأة في المسرح الجزائري- مسرحية الأجواد" أنموذجا-

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان

د/خواني زهرة

ملخص :

إن دراسة رمزية المرأة في تجربة عبد القادر علولة تتم بصدق عن وعي هذا القامة المسرحية و رؤيته الفكرية و الجمالية في توظيف هذه الشخصية التي تشكل ثيمة متميزة في تجلياتها و رمزيتها الثرية بالمعاني و الدلالات الحسية و النفسية و الاجتماعية و الثقافية.

### Abstract

The study of symbolic women in the experience of Abdel Qader Aloula honestly reflect the awareness of this stature of the play and his vision of intellectual and aesthetic in the employment of this character, which is a distinct theme in the emergence and symbolism rich in meanings and psychological, social, cultural and cultural connotations.

يتوسل الخطاب المسرحي الحوار تفريفا له عن السرد، ودعامة هذا الحوار هو الشخصيات، منها شخصية المرأة على وجه الخصوص، والتي تشكل علامة سيميائية ومفهوما واسعا، فموضوعها استقطب عبر الأبحاث والدراسات النقدية الأدبية والفنية والجمالية اهتمام المبدعين والنقاد على السواء؛ لما يثيره من لغة خاصة، وأدوار متنوعة، وأبعاد و رموز مادية ونفسية واجتماعية و ثقافية... إلخ

فإذا كان كل شيء في العرض المسرحي علامة سيميائية فإن شخصية المرأة الأكثر وقوعا تحت جبروت مصطلح "الرمز". تمثل المسرحية أحد المجالات الفنية الواسعة للتعبير الأدبي والإنساني معا: ذلك لما تمنحه من إمكانيات هائلة للسرد والوصف والصراع والحوار والتمثيل من جهة، وما توفره من قدرات داعمة للإبداع والتخيل من جهة أخرى، وفي هذا السياق الإبداعي الحافل بالجدة والجودة الفنية تطالعنا مسرحية عبد القادر علولة "الأجواد".

أضحى توظيف الرمز في حقل السيميائيات الحديثة بما حققه من قفزة نوعية في الدراسات النقدية الأدبية المعاصرة وذلك ما قصده بودليير (Beaudelaire)، حين قال: "بأن كل ما في الكون رمز، وكل ما يقع في متناول الحواس رمز يستمد قيمته من ملاحظة الفنان لما بين معطيات الحواس المختلفة من علاقات"<sup>1</sup> وبهذا يرسم الرمز خطوط إشعاع متعدد الاتجاهات الزوايا و المجالات و الدلالات والتفسيرات .

حاول الدارسون في هذا الحقل أمثال كاسيرير (cassirer)، وفيردنارز دي سوسير (De saussure) وتودوروف، وغيرهم وصولا إلى مدرسة كونستانس الألمانية بزعامة إيزر وياوس ومع مختلف المصطلحات المصاحبة للرمز " فماهية الرمز تتلخص في

إدراك أن شيئاً ما يقف بديلاً عن شيء آخر و يعوضه و المجتمع هو الذي يحدد معنى الرمز، أو هو الذي يضيف على الأشياء الملموسة المرئية معنى معيناً فتصبح رموزاً<sup>2</sup> وفي ظل نمطية دور المرأة الجزائرية في الكتابات الأدبية في سنوات الثمانينيات التي كانت محصورة في : الأم والمجاهدة والمعلمة، هذه وقفة سأتناول فيها رمزية " المعلمة " في الموضوع الثاني وكيف صورها المؤلف في موقف خاطف بداية الدرس فقط .

### فضاء المسرحية :

1. **سيميائية العنوان :** يعيش العنوان والمسرحية في علاقة تكاملية وترايبية فالأول يعلن و الثاني يفسر ملفوظاً مبرمجاً ، فعنوان هذه المسرحية لم يوضع اعتباطاً " إنه لفتح الإجماعي الذي يمدنا بمجموعة من المعاني التي تساعدنا في فك رموز النص، وتسهيل مأمورية الدخول في أغواره و تشعباته الوعرة"<sup>3</sup>.

" الأجداد" بمعناه الأولي والحرفي " الكرماء" و"الأسخياء"، يلخص الفكرة المركزية و الجوهرية للمسرحية ، فشخصيات المسرحية على بساطتها تتصف بروح المسؤولية اتجاه المجتمع والجود عليه كل على قدر استطاعته وتشكل هذه الشخصيات مجتمعة وملتزمة الجماعة والمجتمع، تندمج وتمتزج أدوارها في جسد واحد، حددت صفاتها في الجود والكرم والسخاء والعطاء، فحققت بذلك هذه التسمية فعلاً : نظامها الدلالي السيميولوجي الذي يحمل في طياته قيماً أخلاقية و اجتماعية و إيديولوجية على حد قول رولان بارت.

وظف علولة ( اللهجة العامية) وهي لغة مفهومة متداولة بين كل أفراد المجتمع واستمد دلالاتها من صلب الواقع و الوضع الاجتماعي الذي كانت تعيشه الجزائر في بداية الثمانينات فكانت لغة المسرح لغة شعبية عامية يفهمها القاصي والداني تتماشى وطبيعة فكر الشعب الجزائري الأمي والجاهل المتأثر بشظايا الاستعمار والأوضاع السياسية والفكرية .

### 2. تمفصلات بنية المسرحية:

توزعت مواضيع المسرحية كما يلي:

#### الموضوع الأول:

جرت أحداثه في البلدية و قد مثلت فيها شخصيات علال ( القوال الأم) عامل بسيط مهنته منظر بالبلدية ( زبال) و العساس وهو حارس حديقة البلدية والمنتخبين و الربوحي الحبيب ( القوال الثاني) حداد بالبلدية و السي الحاج ( شخصية تمثل الثراء و البدخ).

#### أما الموضوع الثاني:

فقد وقعت أحداثه في المدرسة و من شخصوه البطولية قدور ( القوال الثالث) البناء البسيط المحروم، وعكلي ( طباخ المدرسة) ومنور ( بواب المدرسة)، الجموع (التلاميذ) والمعلمة.

#### الموضوع الثالث:

فأحداثه دارت في المستشفى وكانت شخصوه البطولية المنصور ( القوال الرابع) المتقاعد والفهامي حلول ( القوال الخامس) عامل تقني سامي بالمستشفى إلى جانب العاملة والعامل عثمان وسكينة (القوال الأخير).

يطلق لفظ الشخصية على الوجود المادي ( الفيزيولوجي ) للإنسان وسواه، ويرتبط مفهومها عند الكاتب بالصفات الجسمانية الخارجية وكذا النفسية والمزاجية أو السلوكية والخلقية، وارتباطاتها وعلاقتها الاجتماعية التي تميزها عن باقي الشخصيات. يوظفها الكاتب باعتبارها " الشكل الذي يضعه المؤلف الدرامي لإنسان ما ليتبناه الممثل على خشبة المسرح نافثا فيه من عقله و إحساسه ووجدانياته الكثير الذي يجسد من هذه الشخصية وينقلها حية إلى العرض المسرحي"<sup>4</sup>

لنلخص رمزية المرأة في شخصية (المعلمة) في مسرحية الأجواد كما يلي:

استفتحت المعلمة الدرس بتذكير لما سبق من دروس قائلة :

"درسنا قبل اليوم في إطار العلوم الطبيعية الشكل الخارجي لجسم الإنسان والشكل الداخلي للجسم، درسنا كذلك الخلية والنسيج، سندرس اليوم الهيكل العظمي، سكوت سكوت من فضلكم.. الدرس يتناول إحصاء العظام."<sup>5</sup>

نال رمز المرأة في الدراسات الأدبية والفنية المعاصرة اهتماما خاصا تركز معظمه على الصيرورة التاريخية عبر مختلف الحضارات لمكانة المرأة و رميتها محملة بدلالات تاريخية، وأسطورية ودينية واجتماعية وأدبية و فنية وجمالية... إلخ .

يندرج اسم "المعلمة" في سيميائية الوظائف البشرية للقيام بمهمة تعليم الأجيال وإخراج عقولهم من دهاليز الجهل و الأمية إلى آفاق العلم و المعرفة . يشير غولدمان إلى أن : " الكاتب الدرامي أثناء مزاولته لخلق الأشخاص ينظر بعين الاهتمام إلى وضعهم الطبقي من أجل أن تبدو أفعالهم و أفكارهم وأقوالهم مطابقة لأولئك الأفراد الذين تتكون منهم تلك الطبقة ..بحيث يبرز التوائم بين دواتهم ووعيمهم من حيث هم أفراد .."<sup>6</sup>

إذا كان " جوهر الدراما هو تمثيل فعل ما " <sup>7</sup> إننا إذا سلمنا بنمطية شخصية المرأة في هذا المقطع من المشهد فهي نوع عام لأن وظيفة التعليم سلوك أزي (الأنبياء والرسل والحكماء )، ولها صفات محددة: كالتقنين والتعليم والتنوير والشرح والتفسير والتربية وتفتيح العقول ونشر المعرفة .. " كما أن أفعال الشخصية هي مرآة لحقيقتها الداخلية والخارجية " <sup>8</sup>، فهي تؤدي رسالة الأنبياء والرسل " كاد المعلم أن يكون رسولا " كما قال شوقي ، والرسول صلى الله عليه وسلم هو الإنسان السوي المحب الذي يمشي في الطريق المستقيم ليدلل الناس إلى الخير و معرفة الله و ترتبط رسالته بمهابة الناس أجمعين .

ونحن إزاء مقطع صيغ باللغة العربية الفصحى في نص المسرحية الشعبية ونحسب أن " النص شكل لساني للتفاعل الاجتماعي تبعا للمقام الذي أنتج فيه وكذا العلاقات الاجتماعية و اللسانية والثقافية والمعرفية "<sup>9</sup>، دارت أحداث هذا المشهد في فضاء العلم، وجغرافية المدرسة، فاستدعيت اللغة العربية ، لغة للتواصل بين المعلمة والتلاميذ، وهكذا دأب الكاتب الواعي المستشرف بقضية العلم و التعليم في بلادنا، فالشخصية على حد قول عبد الحميد بورايو: " يجب أن يكون محتواها في الحدث ذاته تعبير عنه، فنوعها يتماشى معه بصورة اتحادية تعطي معقولة أو منطقية للحدث المنطقية التي تظهر على مستوى وقوعه ، أو على لغته، اللغة التي تستعملها الشخصية نفسها للتعبير عن مواقفها وأفعالها " <sup>10</sup> .

ففي زخم المسرحية الشعبية لم يتقاعس الكاتب في الحفاظ على جانب رمز القدوة في إيصال اللغة في وقت يصعب فيه " التقليل من عامل التعلم اللغوي الجميل في المحيط المدرسي، فالمدرسة وما يتداول فيها من ألفاظ على ألسنة المرين والمرينات عامل شديد الفعالية، بل قد يكون من أعضهما تأثيراً وأهمية في مساعدة الطفل وإقباله على اكتساب اللغة الجميلة الراقية " <sup>11</sup>.

فالطفل في هذه المرحلة من العمر يكون في أمس الحاجة لمثل هذه القدوة تحبب إليه لغة وطنه وتقربه منها وتعلق بها قلبه، فيعجب بها ويقدرها ليعمل بها. فرمزية هذا الاسم واضحة بينة إنها " العلم " و كل ما يندرج في سياقه من : لغة، ومعرفة، ومدرسة، ومعلمة، وتلاميذ، وقسم ووسائل بيداغوجية، وجدت كلها لهدف واحد ورسالة مشتركة ألا وهي رسالة العلم في حياة الإنسان.

والعلم كلمة لها قداستها الإلهية الآتية من السماء ( القوة الإلهية ) فقد عرف آدم عليه السلام هذه الكلمة عندما تلقى من ربه كلمات و علمه الأسماء كلها. وبدون إنجاز وظائفه من تعليم وتعلم وعمل به لا يتحقق الوجود الاجتماعي الإيجابي للجنس البشري المتميز بالعقل والتفكير في هذا الوجود. والعلم يحتاج إلى الاتصال بكافة أشكاله وأدواته للتبليغ الحسي أو المادي و المعلمة تكتسب هذا العلم ولها الكفاءة على إيصاله وتبليغه.

كما أن الرمز ليس بالضرورة أن يكون حمولة لأسرار تتحشم عبء الإخفاء والتمويه، بل قد يكون دلالة طبيعية تفصح عن مدلولها دون مقاومة فكرية أو حسية عند ديسوسير عندما يبرز قائلاً : "الرمز يتميز بكونه ليس دائماً اعتبارياً تماماً، فهو ليس خاوياً بل نجد فيه شيئاً طفيفاً من الربط بين الدال والمدلول، فلا يمكن أن نعوض رمز العدالة بما اتفق من الأشياء الأخرى كالدبابة مثلاً .. " <sup>12</sup>

لا يختلف اثنان كون المعلمة كائن فيزيولوجي يحمل مشاعر سيكولوجية، وظيفتها الطبيعية تعليم النشء، فالدلالة جلوية واضحة، والرمز إلى جانب كونه حاجباً لمعان خفية، يمكن أن يكون " تركيب لفظي يستلزم مستويين: مستوى الصورة الحسية التي تأخذ قالباً للرمز، ومستوى الحالات المعنوية التي نرزم إليها بهذه الصورة الحسية " <sup>13</sup> ليحقق بذلك صفة التقابل والترادف إلى جانب مهمته في سبر أغوار الدلالات المتناقضة والإجاءات الواسعة والعميقة .

تجاوزت المرأة حدود أدوارها الاجتماعية التقليدية في الزواج وخدمة أشغال البيت والإنجاب والأمومة والتربية إلى المساهمة بشكل فعال وقوي لبناء المجتمعات، مقتحمة في ذلك كل مجالات التنمية والتطور متأثرة ومأثرة في الميادين الاجتماعية والسياسية والثقافية والفنية والتكنولوجية والعلمية والدينية والاقتصادية والرياضية ...

وظفت المعلمة في كل حواراتها باللغة العربية الفصحى على خلاف باقي الشخصيات مما يؤكد أن علولة أعطى المرأة المتعلمة مكانة محترمة في المجتمع، بل عالية في مستواها الثقافي والعلمي، فهي تربي في استعمال ألفاظ مهذبة مثل:

" اجلسوا من فضلكم " .

" شكراً "

" سكوت سكوت من فضلكم " 14

فهذه العبارة المستلطفة تكسب الطفل تربية خلقية هو في حاجة إليها، " ففي مرحلة التمييز يسهل تكوين العادات الحسنة وبت الخصال الحميدة وتهديب الغرائز والنزعات " 15

وتوظف اللغة العربية الفصحى في إلقاء الدرس العلمي حول " علم العظام " وهي تفتتح الدرس:

" درسنا قبل اليوم في إطار العلوم الطبيعية الشكل الخارجي لجسم الإنسان والشكل الداخلي للجسم، درسنا كذلك الخلية والنسيج، سندرس اليوم الهيكل العظمي، سكوت سكوت من فضلكم.. الدرس يتناول إحصاء العظام." 16

أسلوب التذكير منهج رباني عمل به الأنبياء والرسل لربط المعارف السابقة باللاحقة تارة، والعظة والاعتاظ تارة أخرى، ساقته للسبب الأول كتقنية بيداغوجية تمهد بها لتشد الأنظار وتأسر العقول و القلوب للإصغاء و الانتباه .

استطاع المؤلف أن يجعل المرأة في هذا الدور التعليمي تتخطى الحدود المتعارف عليها في تلك الفترة فيما يخص استعمال الوسائل البيداغوجية المستوردة إلى الإبداع باستعمال هيكل عظمي حقيقي محلي (خاص بالعكلي)، طبخ المدرسة المتوفى منذ سنوات، وهي تحرص بشدة على الحارس لجلبه إلى القسم، ومشاركته في شرح تفاصيل الحياة المعنوية لهذا الهيكل للتلاميذ؛ إنه بعد استراتيجي يحمل الكثير من الإيماءات البيداغوجية مثل :

- الإبداع في استعمال الإمكانيات المحلية .
- المشاركة في بث رسالة العلم و المعرفة.
- بث الحيوية والنشاط في الدرس في الجمع بين المادي والمعنوي وتقريب الصورة الذهنية للمتعلم.
- فسيولوجية هذه الرمزية مرتبطة ومتشكلة من سياق سوسيو اقتصادي ثقافي( هيكل عظمي محلي) و( تعليمية العلوم الطبيعية).
- تعالق موضوع الجود في العنوان مع صفة البذل والعطاء المرتبطة بالمعلمة التي تحترق كالشمعة لتضيء للآخرين.

لقد أخذت المعلمة في هذا الفضاء التربوي زمام المبادرة في الدرس الدرامي؛ ليس فقط في الأمور المتعلقة بالأخلاق والتربية؛ ولكن في كونها صارت القوة المحركة لعجلة الثورة الثقافية المعاصرة.

إنها المرأة الجزائرية المتعلمة التي تتمتع بقدرات إبداعية في التعليم والتربية، ويفترض أن تكون على درجة من التعليم و الوعي تؤمن بالمبادئ الوطنية والهوية الجزائرية، وتطالب بالتغيير وهذا ينفي صورتها النمطية التقليدية السائدة كالزوجة المطيعة والأم التي تعاني تعسف زوجها وتهميش المجتمع لطاقتها الخلاقة.

وهذا ما يجعلها يبرز دور إيجابي في المجتمع بعقريتها في نشر العلم والمعرفة وصيانة العقول من الجهل والتخلف، وإصلاح السلوك، وبث روح التفاعل والانقياد الاجتماعي الإيجابي.

كان اختيار عبد القادر علولة لهذا النموذج من النساء المتعلمات والواعيات برسالتهن، هو نموذج يسلم بقدر كبير في التعبير عن فكره ورؤيته التربوية والدرامية، فجاء دور المعلمة هنا كحمولة إيديولوجية تتضمن مجموعة التصورات التي تعبر عن

مواقف محددة اتجاه علاقة الإنسان بالإنسان ممثلة في رمزية المعلمة، وعلاقة الإنسان بالعالم الطبيعي في إطار الدرس العلمي ( العلوم الطبيعية ) وعلاقته بالعامل الاجتماعي في تهيئة الطفل ليكون فردا صالحا ونافعا لمجتمعه، وفي أداء دورها ووظيفتها الاجتماعية الخاصة بالتعليم، إلى جانب الأدوار الروحية التي تمارسها في علاقاتها الاتصالية مع عالم الأطفال، وما تبثه فيهم من لمسات العطف والحنان والأمان، هذه العلاقة ما كان لها أن تنبني وتتأسس إلا بوجود حياة بشرية، غير مستكينة لقدرها شخصيات واعية تماما لما تريد..إنها أصوات واعية لأدوارها...

الأجواد كان عنوانا للحمة المجتمع، لصفة من أرقى صفات الأنبياء والرسل، كان رمزا للتضحية والبذل وخدمة المجتمع، وتعبيرا عن المشاركة الإيجابية والفعالة للمرأة في البناء والتقدم والازدهار، وصفة من أسماء الله الحسنى " الجواد"، حقت لتكون رمزا من رموز المرأة...

وأخيرا لا بد من تكثيف الدراسات التي تبحث موضوعات المرأة وصورها ورمزيتها في المسرح الجزائري، وربطها بمختلف التقارير والدراسات الصادرة من مختلف الجهات والهيئات والمتعلقة بشأنها، في النهوض بتقديم صورة حقيقية عن واقع المرأة الجزائرية والتعبير عن قضاياها المعاصرة.

#### الهوامش :

- 1- محمد فتوح أحمد، الرمز والرمزية في الشعر العربي المعاصر، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1978، ص112.
- 2- يوسف عيد، المدارس الأدبية ومذاهبها، دار الفكر اللبناني، بيروت، ط1، 1994، ج1، ص169.
- 3- جميل حمداوي، السيميوطيقا والعنونة، عالم الفكر، المجلد 25، العدد 23، يناير مارس 1997، ص 90 .
- 4- كمال عيد، أعلام ومصطلحات المسرح الأوروبي، دار الوفاء لنديا للطباعة والنشر، القاهرة، 2006، ط1، 2006م، ص 329.
- 5- عبد القادر علولة: من مسرحيات علولة، الأقوال، الأجواد، اللثام، موفم للنشر، 1997، ص 109 .
- 6- وليام بويلور، مدخل في علم الاجتماع الأدبي، ترجمة: إبراهيم خليل، مجلة الأقاليم، العدد 10، السنة 19، تشرين الأول، 1984، ص 82 .
- 7- علي عواد، المعرفة والعقاب، قراءات في الخطاب المسرحي العربي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، 2001، ط1، ص 62.
- 8- صالح مباركية، بناء الشخصية في مسرح ألفريد فرج، الهيئة المصرية العامة لقصر الثقافة، القاهرة، د ت، د ط، ص 63 .
- 9- بشير إبرير، السيمياء وتبرير النص الأدبي، (نقلا عن: سعيد يقطين، تحليل الخطاب الروائي، ص 44 )، منشورات جامعة عنابة، السيمياء والنص الأدبي ( أعمال ملتقى معهد اللغة العربية وآدابها) جامعة باجي مختار عنابة، 17/15 ماي 1995، ص 11.
- 10- عبد الحميد بورايو، منطق السرد، دراسات في القصة الجزائرية الحديثة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1994، ص 62 .
- 11- العربي بختي، أسس تربية الطفل في ضوء الشريعة و علم النفس، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2012، ص 260.

- 12- فرديناند دي سوسير، دروس في الألسنية العامة، تعريب : صالح القرمادي، محمد الشاوش، الدار العربية للكتاب، طرابلس ليبيا، 1999، ص 113 .
- 13- محمد علي كندي، الرمز والقناع في الشعر العربي الحديث، السياب ونازك والبياتي، دار الكتاب الجديد، طرابلس ليبيا، 2003، ص 54 .
- 14- عبد القادر علولة: من مسرحيات علولة، الأقوال، الأجواد، اللثام، ص 109 .
- 15- العربي بختي، أسس تربية الطفل في ضوء الشريعة وعلم النفس، ص 123.
- 16- المرجع نفسه، ص 174.